أدونيس والقرآن

(أطر الموقف ومرجعياته) في شعره وفكره

أ.د. حسين لفته حافظ

م.د. عباس عبد الحليم عباس/الجامعة العربية المفتوحة/الأردن

المقدمة:

بحث (أدونيس والقرآن .. أطر الموقف ومرجعياته..في شعره وفكره) يهدف إلى كشف حقيقة الموقف الأدونيسي من النص القرآني ، ولاسيما أن كتابات أدونيس الفكرية والشعرية يعتريها كثير من الغموض ، وتتسم بدرجة عالية من الالتفاف على الحقائق ، وتوظيف ثقافات متنوعة المشارب ليصوغ بها وجهة نظره الخاصة ، كما أن شهرة أدونيس الأدبية والفكرية تكسب أي بحث أو دراسة تتناول جانباً من جوانب فكره وفنه أهمية خاصة ، ومن هنا فإن طبيعة مثل هذا الموضوع تزداد أهمية حين ينظر إليه من زاوية الهجوم على المقدسات في الفكر والعقيدة ، وخاصة أن أعمال أدونيس تتم ترجمتها إلى لغات عديدة ، الأمر الذي يجعل الصمت إزاء ذلك كله ضعفاً فكرياً ومنطقياً واستلاباً معرفياً.

وإذا كان الأمر كذلك فربما يفقد الموضوع قيمته الفكرية إذا خرج عن منهجية الحجاج والجدل إلى التراشق بالتهم بشكل خارج عن الموضوعية والاتزان. ولا سيما أن أدونيس تمت دراسته بشكل يفوق دراسة كثيرين من مبدعي الأمة وشعرائها .

أدونيس في الدراسات النقدية :

وما زالت الدراسات الجادة حول أدونيس ومنجزه الشعري والموجهة توجيهاً منهجياً تقل بكثير عن تلك التي تتسم إما بالثناء المطلق أو بالانفعال والهجومية التي تصل بأصحابها حد الشتائم والخروج عن أدنى مقومات المنهج الصحيح ، ولا شك أن الدراسات التي أقيمت حول أدونيس في عالمنا العربي أو الغربي تكاد تستعصي على الحصر،غير أن من المفيد هنا ذكر بعضها :

- الشعر والتأويل : قراءة في شعر أدونيس ، عبدالعزيز بومسهولي ، الدار البيضاء ، دار إفريقيا الشرق ، ١٩٨٨.
- أفق الحداثة وحداثة النمط ، سامي مهدي ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٨م.
- أدونيس والتراث النقدي ، عبدالرحيم مراشدة ، دار الكندي ، إربد ، الأردن ، ١٩٩٥م.
- بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، علي الشرع ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٨٧م.
- أدونيس منتحلاً ، جهاد كاظم ، الدار البيضاء ، دار إفريقيا الشرق ، ١٩٩١م.
- الشعر والوجود ،دراسات فلسفية في شعر أدونيس ، عادل ظاهر ، دار المدى ، دمشق ٢٠٠٠
- تحرير المعنى :دراسة نقدية في ديوان أدونيس ،أميمة درويش ، دار الآداب ، بيروت،١٩٩٧
- الحداثة في النقد الإسلامي المعاصر : عدنان النحوي ناقداً / أدونيس نموذجاً. أشليح حفيظة . إشراف الأستاذ المقري الإدريسي أبو زيد ١٩٩١-١٩٩٢م. جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنساني.
- أدونيس وجمالية اللايقين ، فيصل درّاج ، أطروحة دكتوراه ١٩٩٣

أدونيس : النشأة والمؤثرات الثقافية :

يتضح لدارس أدونيس أنه تثقف بثقافة خاصة ، وثقافة من نوع مميز ، جمعت بين التعمق في التراث العربي الإسلامي ، وتراث الأمم الأخرى من جهة ، والانفتاح الكبير على الثقافة الغربية من جهة أخرى ، وربما كانت دراسة عبدالرحيم مراشدة (أدونيس والتراث النقدي) من أهم الدراسات التي أثبت صاحبها من خلالها تميز العلاقة بين أدونيس والتراث ، ويبدو أن فهم العلائق التي تربط أدونيس بأي فكر محيط به ، سواء أكان فكراً تراثياً أو حداثياً ينبغي أن يُنظر إليه من خلال المكوّنات الثقافية الخاصة التي كوّنت أفق أدونيس الفكري .

فأدونيس أو علي أحمد سعيد (ولد في قرية قصابين السورية ، بين اللاذقية وطرطوس عام ١٩٣٠)[١] وهو يروي في بعض حواراته تعلقه الشديد بالأرض ، بمطلق الأرض ، سواء أكانت وطناً أم غير ذلك ، يقول : (أظل ذلك الريفي الصغير من (قصابين) أقصد إذا كانت رابطتي الأصلية بلحم الأشياء تظل في جوهرها ريفية ، فإن الأرض في نظري لا يمكن اختزالها إلى مجال الطفولة وحده. إنني أمنح الأرض بعداً شبه ميتافيزيقي. هي في آن الملكوت الأخير للإنسان وفضاؤه الأول)[٢] ، وفي الجملة الأخيرة تكمن خلاصة هذا التعليق الأدونيسي الذي يفهم منه ما يفهم في إطار الثقافة الإسلامية ، وفكرة البعث الإسلامية التي لا تتوافق أبداً مع جعل الأرض هي (الملكوت الأخير للإنسان) ، غير أن تصريحاً مؤدلجاً كهذا لابد أن يحل لنا العديد من إشكالات البحث والدراسة مما سنواجه فيما بعد. ولمزيد من جلاء الصورة حول المكونات الثقافية الأولى لأدونيس ، يروي عبدالرحيم مراشدة عن البيئة المبكرة له موضحاً (أن أدونيس عاش في محيط عائلة متواضعة أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى ، وربما لهذا السبب تأخر عن اللحاق بالمؤسسات التعليمية ، كما رأى بعض الدارسين ، حيث لم يلتحق بالتعليم إلا في الرابعة عشرة ، وهو يصرح بذلك في قوله : "أنا لم أدخل المدرسة إلا في سن الرابعة عشرة ، وقبل ذلك كنت في الكتّاب أقرأ القرآن ، وأتعلم الخط ... وكنت قوياً جداً في قواعد اللغة العربية ، وكنت عارفاً بأسرار الإعراب واللغة ، رغم أني كنت طالباً متفوقاً ومحبوباً ، فإني كنت أشعر بالوحدة ، وبأنه عليّ أن أقوم بشيء ما يكون مختلفاً" وكذلك في قوله : "لقد لقنني والدي منذ صغري الكثير عن كبار الشعراء العرب ، كامرئ القيس ، والمتنبي ، وأبي تمام ، وكثيرين غيرهم" .. ولهذا يحاول الإشارة إلى أبيه ، لما له من فضل عليه في بعض توجهاته ، لاسيما عندما صدّر ديوان الشعر العربي بالإهداء :"إلى أبي أول من علّمني الشعر")[٣].

وبالطبع فإن هذه الاقتباسات تشير إلى قسط جيد من مكونات الثقافة الأولى عند أدونيس ، لكنها تشير أكثر إلى قضيتين نفسيتين شكّلتا مكونات شخصية خاصة ، وذات قيمة في توجيه الفكر بدرج أولى ، وهما (الشعور بالوحدة) منذ سن مبكرة ، وكذلك (الحاجة إلى أن يكون مختلفاً) ، فمثل هذه الألماعات تزوّد الدارس بتفسيرات ، ربما تكون جيدة ، لمواقف فكرية معينة.

وإذا غادرنا مرحلة الطفولة أو النشأة المبكرة إلى تطورات أخرى في حياة أدونيس فإننا سوف نقف ملياً عند هجرته من سوريا إلى بيروت ، ونبدأ بما يرويه في كتابه (ها أنت أيها الوقت) الذي يعد بمثابة سيرة ذاتية إبداعية فيقول إنه (وصلها لأول مرة في أكتوبر ١٩٥٦م ، حيث كان يذاع نبأ الهجوم على قناة السويس ، وكان يحس

بأنه منكسر وخائب وشبه يائس)[٤]، وفيها أحس بالفرق الواضح بين الثبات النسبي الذي كان يحياه في سوريا ، والتغير الهائل والضياع في عاصمة متقلبة ، تعجّ بالأحداث والتقلبات كبيروت ، وهو ما شكّل له تحدياً ضخماً ليضع توازنه النفسي وتكيفه الاجتماعي والثقافي مع البيئة الجديدة ؛ (ولهذا ذهب أدونيس ، ابتداء ، إلى محاولة اكتساب الجنسية اللبنانية ، وتيسّر له ذلك في العام نفسه (١٩٥٦) ، وفور وصوله بيروت حاول الالتقاء بالأوساط الثقافية والانخراط في الأجواء الأدبية الشائعة)[٥] ، وبدأت رؤيته الفكرية الخاصة تتشكل هناك ، حيث (كانت بيروت منظوراً إليها من داخل ، عالماً يفرغ من التاريخ الذي نشأت فيه أو أنشأها ، وتتحفز في اتجاه تاريخ آخر لا تكون مكتوبة به ، بل تكتبه هي نفسها ، كان القديم نهراً يجري في وادٍ اسمه الجفاف. وفيما كانت دمشق تبدو كمثل صندوق هائل ومقفل ، كانت بيروت تبدو أفقاً وفضاءً ، هكذا كان شعور. إنني أخرج مما يقيّد إلى ما يطلق ..)[٦].

<u>في سياق الحزب السوري القومي الاجتماعي:</u>

لعل ما يطلق هذا الذي سمّاه أدونيس يظل مختلطاً ومشتكلاً دون الوصول إلى مرجعيات محددة صاغت الأفق الفكري لأدونيس المثقف / الشاعر ، أعني توجهه إلى محاور فكرية وحزبية وثقافية معينة ، وربما كان أبرزها انتماءه إلى <u>الحزب السوري القومي الاجتماعي</u> الذي أسسه (أنطون سعادة)(٧) وهو الحزب الذي يؤمن بطاقات الإنسان وقدراته وحرياته على خلق تاريخه وحاضره ومستقبله ، دون التحصّن بأي عقيدة ذات مرجعية دينية أو روحانية يمكن أن توجه الفرد.

ومن الناحية الأدبية ، فقد كان لأنطون سعادة مشاركات أدبية ونقدية أثّرت في الشعر العربي الحديث تأثيراً بالغاً ، بل هي أساس أول بيان شعري حداثي تبناه يوسف الخال مؤسس حركة مجلة (شعر) اللبنانية ، والصديق الأوفى لأدونيس (علي أحمد سعيد) الذي يقول : ((إن ما قاله أنطون سعادة في كتابه (الصراع الفكري في الأدب السوري) في الأربعينات حول معنى التجديد ، أعاد صياغته يوسف الخال مبدأ من المبادئ العشرة التي وضعها منطلقات ومعايير للحداثة الشعرية العربية ، وكان عنصراً جوهرياً في نظرتنا وفي ممارستنا النقدية))[٨]. ولعل الغريب في الأمر ، ليس التجديد والرغبة فيه نفسها ، بل أن يكون التجديد مبنياً على قطعية تامة بالأصول ، ذلك أن مرجعيات أدونيس التي ذكرتها سابقاً وكذلك مرجعيات زملائه في مجلة شعر (المشروع التجديدي الأكبر) بالنسبة لأدونيس وزملائه ، تكشف عن قطعية واضحة حين ذهب أنطون سعادة إلى إخراج سوريا (بمفهومها القديم) من دائرة الشرق والعروبة ((فسورية ليست أمة شرقية ، وليس لها نفسية شرقية ، بل هي أمة مديترانية (متوسطية) ولها نفسية التمدن الحديث الذي وضعت قواعده الأساسية في سورية))(٩) ، وهذا يذكرنا بدعوة سابقة مثيلة عند طه حسين *

وأدونيس عينه يعلن هذه الانفصالية الحضارية والفكرية في أحد حواراته بقوله ((أنا شخصياً أجد نفسي أقرب إلى نيتشه وهايدغر ، إلى رامبو وبودلير ، إلى غوتة وريلكه ، منّي إلى كثير من الكتّاب والشعراء والمفكرين العرب))(١٠).

أدونيس بين التراث والحداثة :

فيما يخص موقف أدونيس من التراث والحداثة ، ذهبت في تقسيم أعمال أدونيس إلى ثلاثة أقسام :

١- كتاباته حول التراث العربي والإسلامي.

٢- كتاباته في الحداثة ومعطياتها النظرية.

٣- منجزه الشعري.

ومن أجل المزيد في التفصيل والإيضاح لصورة نتاجه السابق لا بأس من إيراد أبرز عناوين كل قسم ، كما في الجدول :

١) في التراث العربي الإسلامي.	٢) في الحداثة ومعطياتها النظرية.	٣)في المنجز الشعري.
- **الثابت والمتحوّل** (بحث في الاتباع والإبداع عند العرب) ١) الأصول ١٩٧٤. ٢) تأصيل الأصول ١٩٧٧. ٣) صدمة الحداثة ١٩٧٨. - **ديوان الشعر العربي** (مختارات) ٣ أجزاء. ١٩٦٤ – ١٩٦٨. - **مقدمة للشعر العربي** ١٩٧١م.	- **زمن الشعر** ١٩٧٢. - **سياسة الشعر** - **الصوفية والسريالية** - **القرآن وآفاق الكتابة** - **الهوية غير المكتملة:** **(الإبداع ، الدين ،السياسة الجنس ٢٠٠٥)** -	- **قصائد أولى** ١٩٥٧. - **أوراق في الريح** ١٩٥٨. - **أغاني مهيار الدمشقي** ١٩٦١. - **كتاب التحولات** ١٩٦٥. - **المسرح والمرايا** ١٩٦٨م. - **وقت بين الرماد والورد** ١٩٧٠. - **مفرد بصيغة الجمع** ١٩٧٧م. - **الكتاب : أمس-المكان – الآن** .٣ ج ، ٢٠٠٢

لاشك أن **كتابات أدونيس حول التراث العربي والإسلامي** كانت كتابة مؤدلجة من جهة ، وانتقائية من جهة أخرى ، وربما كان تفحّص كتابه (الثابت والمتحول) مثالاً جلياً على ما نقول، ونظرة سيميائية (دلالية) إلى العنوان نفسه تشرح التناقض والتضاد الذي يؤسس رؤية أدونيس وفلسفته الخاصة في فهم تراث العرب والمسلمين ، الذي هو تراثه قبل أي شيء ، فالدين الإسلامي أو الشريعة هما وجه العملة الأول الذي يسمّى لديه (الثابت) وهنا نتوقف قليلاً لنسأل أدونيس نفسه عن نمط القراءة الذي مارسه على التراث ، ونوعية المادة المقروءة نفسها، وأعني هنا أن منهجية الانتقاء والاختيار المتعمد سيكون لها مخاطرها بلا شك ، فإذا كان أبرز أعلام الفلاسفة قد وفّقوا بين الشريعة والحكمة (الفلسفة) من حيث هما حركة للفكر دائمة ، وتساؤل مستمر في قضايا الحياة ، وليس أدلّ على ذلك من جعل القياس والاجتهاد مصدرين من مصادر الشريعة ، وتكفي الإشارة هنا إلى ابن رشد وكتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال).

والوجه الآخر للعملة عند أدونيس هو التحوّل ، وهذا التعبير له مفهوم خاص عنده يمكن الوصول إليه بمطالعة كتابه المذكور آنفاً. فالسؤال الآن : كيف فهم أدونيس التحول ؟

إن (التحول) عنده هو (الإبداع) (وصدمة الحداثة) وهذه المترادفات تعني الخروج والتغيير وكل ما هو ضد الخلافة (فالمعنى التقليدي أي الأصلي للخلافة ، هو أن يتّبع الخلف السلف ، في فكره وعمله. فالخلافة استمرار للأصل يزيد في تأصيله ، وليست أي نوع من أنواع التغير أو الخروج ، فالأساس فيها الاتباع لا الاجتهاد أو الإبداع ... ومبدأ الحداثة من هذه الناحية ، هو الصراع بين النظام القائم على السلفية ، والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام. وقد تأسس هذا الصراع ، في أثناء العهدين الأموي والعباسي حيث نرى تيارين للحداثة : الأول سياسي – فكري ، ويتمثل من جهة في الحركات الثورية ضد النظام القائم ، بدءاً من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج مروراً بالقرامطة والحركات الثورية المتطرفة. ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية الإلحادية ، وفي الصوفية على الأخصّ ... أما التيار الثاني ففني ، وهو يهدف إلى الارتباط بالحياة اليومية ، كما عند أبي نواس ، وإلى الخلق لا على مثال ، خارج التقليد وكل موروث ، كما عند أبي تمام. الاتجاه الأول يلغي الأرستقراطية – الوراثية في الحكم ، والاتجاه الثاني يلغي عصمة الأوائل في الفن)(١١).

هذا هو الفهم الأدونيسي للتحول / للحداثة / للتطوير والتغيير ، ولا حاجة بنا للتعليق. غير أن ما يمكن قوله أن التراث المقبول عند أدونيس هو التراث المنحرف ، هو الخروج ، هو اللامعتاد. وهذا الفهم يمثل موقفا ومرجعية يسحبها أدونيس على الديني والدنيوى معا.

أما **فيما يخص (كتاباته حول الحداثة ومعطياتها النظرية)** فهو كغيره من المفتونين بالغرب ونظريتهم المعرفية في سياقاتها المتعددة ، ولا يفتأ ينقل عنهم حتى دون الإشارة إلى مرجعياته في كثير من الأحيان وهو الأمر الذي انحرف به عن جادة الطريق فيما يخص الموضوعية والعلمية في الأخذ عن الآخر واستعارة معارفه ، وسأكتفي بما أورده (سامي مهدي) من أن أدونيس حين نظّر لقصيدة النثر معتمداً كتاب الدكتورة سوزان برنار (قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا هذه) ((لم يقم بتوثيق ما نقله عنه من أفكار وما ترجمه من عبارات ليستطيع

قارئه التمييز بين جهده النظري واجتهاداته من جهة ، وجهد مؤلفة الكتاب واجتهاداتها من جهة أخرى .. والحق أن أدونيس لم يأت بشيء عن قصيدة النثر من خارج هذا الكتاب. فكل ما قاله موجود فيه ، رغم أنه حاول في بعض ما قاله أن يصوغه صياغة خاصة ..))(١٢).

إذن فأولى سمات ثقافة أدونيس الحداثية الغربية هي بعده عن الأمانة العلمية والبحثية. يضاف إلى ذلك سمة نتابع بها السمة الأساسية في تعامله مع التراث العربي ، وأعني بذلك جريانه وراء المختلف والمغاير والمدمّر والمغيّر ، فقصيدة النثر التي يرى فيها واجهة الأمل في تغيير الشعرية العربية ، ويرى فيها شكلاً من أشكال الخلاص ومشروع الحداثة الأكبر تشكّل تناقضاً فجاً بين فكره هناك وفكره إبان بدايات الحداثة الشعرية في مجلة شعر.

واتباعاً لنهجه السابق في اعتماد المذاهب والنزعات الخارجة المتمردة نجده يعتمد السريالية ويكتب عنها كتاباً كاملاً معتبراً إياها خلاصاً للإنسان وفتحاً لطاقاته الكامنة ، رابطاً إياها بالصوفية وكشوفاتها(١٣). ومكملاً مشروع زوجته (خالدة سعيد) في ترجمتها لكتاب (دلاس فاولي) "عصر السريالية" الصادر عن دار العودة ببيروت ، ١٩٨١ ، وأكتفي هنا بالإشارة إلى أبرز مقومات حركة السريالية (Surrealism) الفرنسية الثورية التي تعني (ما فوق الواقع) وذلك من خلال بيانات زعيمها (بريتون) إذ كانت تقوم على الأسس والمنطلقات التالية : (الحب والرغبة ، الأحلام والغوص في اللاشعور ..، الإيمان بالمصادفة ومعاداة العقل .. ، الجنون)(١٤).

وإذا انتقلنا للحديث عن **<u>الإطار الفكري لمنجز أدونيس الشعري</u>** ، فإننا – ولا شك – سنقف عند مشروع فني لا يستهان به ، وهو مشروع يتكامل مع خطابه المعرفي في أعماله الكتابية النقدية والفكرية الأخرى من حيث استمراء التغيير المستمر دون هدف أو غاية محددة، أي المهم أن يختلف الشاعر لدرجة أنه سيختلف مع نفسه ، ففي مقدمة أعماله الشعرية الكاملة يشير أدونيس إلى تغيير أسماء قصائد بل دواوين كاملة ، فمثلاً (هذا هو اسمي) صار عنواناً جديداً لمجموعة صدرت تحت عنوان (وقت بين الرماد والورد) ، (والمطابقات والأوائل) هو العنوان الجديد لمجموعة (كتاب القصائد الخمس تليها المطابقات والأوائل)(١٥).

بدأ أدونيس تجربته الشعرية (بقصائد أولى – ١٩٤٧) وما زال يمارس الكتابة الشعرية فأصدر مجموعتي (أول الجسد آخر البحر) و (وتنبأ أيها الأعمى) ٢٠٠٣م. وما بين عام ١٩٤٧ وعام ٢٠٠٣ تتوالى أعمال أدونيس الشعرية لتشكل جزءاً أساسياً في حركة الحداثة الشعرية في الأدب العربي المعاصر ، ويتخذها الدارسون علامة بارزة في طريق تغيير أساليب الشعرية المعاصرة. ولا يمكن بحال من الأحوال الحديث عن تجربة أدونيس الشعرية بمعزل عن حركة مجلة شعر (١٩٥٩–١٩٦١) تلك التي أسس من خلالها يوسف الخال مع أدونيس مشروع الحداثة الأكبر في تاريخ الشعر العربي المعاصر.

ويهمني الإشارة هنا إلى **<u>المنطلقات الأيديولوجية</u>** التي انطلقت منها هذه الحركة لما لذلك من عُلقة بسياق حديثنا عن أدونيس نفسه ، ولما له من تداخل في إطار تعميق الرؤية بشخصية أدونيس الانفصالية التي تعلن كما أعلن يوسف الخال بأن (الحضارة الغربية هي حضارتنا نحن بقدر ما هي حضارة الفرنسي والألماني والروسي إلخ

.. ونحن لا قيمة ولا مستقبل لنا في العالم العربي إن بقينا خارجها ولم نتبنها من جديد ، ونتفاعل وننفعل بها .. إن هذه الحضارة هي نحن بقدر ما هي هم)(١٦).

ولابد لهذه الرؤية من تأثير مباشر في شعر أدونيس ، على المستويين الفني والموضوعي. ففي إطار المستوى الأول نلاحظ أن أدونيس لم يكتب شيئاً يذكر من شعره على طريقة القدماء ، أي الشعر العمودي ذي الشطرين ، بالرغم من أنه عمل مجموعة من المختارات الشعرية القديمة والحديثة التي التزمت عمود الشعر العربي. أضف إلى ذلك ما أرساه أدونيس من انفصال جذري عن الشكل الفني للقصيدة العربية فيما أسماه بـ (قصيدة النثر).

وكي لا تتحول وجهتي إلى تحليل فني لمنجز أدونيس الشعري سأكتفي بالإشارة إلى أبرز ملامح الفن الشعري عنده وهي :

أولاً : الغموض :- فقد امتاز الخطاب الشعري عنده بدرجة عالية من الغموض. وقد عزا الدكتور شكري عياد وجود الغموض في الشعر إلى عدة أسباب منها (ثقافة الشاعر واستخدامه للرموز ، والتجريد ، والتركيز ، وربط ذلك كله بالموقف الحضاري العام للشاعر الحديث). (١٧) وبالرغم من أن بعض هذه التقنيات تشكّل عمليات ضرورية ولازمة في بنية النص الفنية، إلا أن ثمة تداولاً خاطئاً وقاصراً لبعضها مما يؤدي إلى خلل في آلية التوصيل ، ويحدث قطيعة بين النص والقارئ.

وأمثلة ذلك كثيرة ، بحيث أنك لست بحاجة لتبحث عن نص تمثل به لهذه الخصيصة، فالغموض سمة أساسية في شعره ، خذ مثلاً قوله :(١٨)

نمت مع المدينة
في أول الغصون في بداية الجراح
كانت على سريري
أقلق من سفينة
في اللُّجّ ، واللقاح
يخضّها ، يفتح كلّ عرق ..
واستيقظت ، كان السرير نهراً
للحبِّ
واللقاحْ .

ثانياً : النثرية :- أو التحول في الكتابة الشعرية من قصيدة التفعيلة إلى ما يسمى (بقصيدة النثر).ولا أدري إذا أتاح لنا البحث العلمي أن نشتبك قليلا مع الأطر الأخلاقية في الدوائر الإبداعية أو البحثية فأشير إلى الضجة

الكبيرة التي أثيرت حول (سرقة) أدونيس لأفكار (سوزان برنار) في تنظيراتها الشهيرة حول قصيدة النثر ، فقد تتبع الباحث الأستاذ سامي مهدي هذه السرقات في كتابه " أفق الحداثة وحداثة النمط" المشار إليه سابقا ،حيث أكد مهدي أنّ أدونيس اعتمد في تنظيراته لما يعرف بقصيدة النثر على أفكار برنار عبر كتابها " قصيدة النثر من بودلير حتى أيامنا " الصادر عام ١٩٥٩م ،وعلى الرغم من إشارة أدونيس إلى الكتاب إلا أنه ((لم يقم بتوثيق ما نقله عنه من أفكار ، وما ترجمه من عبارات ليستطيع قارئه التمييز بين جهده النظري واجتهاداته من جهة ، وجهد مؤلفة الكتاب واجتهاداتها من جهة أخرى))(١٩)

أما المستوى الآخر (الموضوعي / المضموني) فيتمثل في أهمية الكشف عن المضامين الشعرية والأفكار الكبرى التي طرحها أدونيس في خطابه الشعري عموماً

لعل علاقة أدونيس بالقرآن تشبه إلى حد بعيد علاقات كثيرين من الشعراء ، فعبارة (تلقّى تعليمه بالكتّاب) تفصح عن وجود النص القرآني ضمن الحزمة التعليمية التي يتلقاها التلامذة آنذاك ، لكن شيئاً من الاختلاف يمكن رصده في حالة أدونيس هنا ، فهو لم يتابع تعليمه الابتدائي بعد الكتّاب إلا حين أصبح في سن الرابعة عشرة ، يقول: "أنا لم أدخل المدرسة إلا في سن الرابعة عشر ، وقبل ذلك كنت في الكتّاب أقرأ القرآن ، وأتعلم الخط .. وكنت قوياً جداً في قواعد اللغة العربية ... لقد لقنني والدي منذ صغري الكثير عن كبار الشعراء العرب .." (٢٠). ولم يكن يعنيني الحديث عن علاقة شاعر أو مفكر بالقرآن ما لم يكن قد كتب عن هذا النص الإلهي وتحدث عنه غير مرة في سياقات مختلفة.

لا أريد أن أطيل التأكيد على بدايات العلاقة الأدونيسية بالقرآن الكريم فهي مشار إليها كثيراً في الكتابات التي تحدثت عن سيرة حياته مباشرة ، أو هي مفهومة ضمناً من خلال اطلاع أدونيس المعمق على تراث الشعر العربي الذي لم تنفك صلته بالقرآن البتة ، عند شعراء صدر الإسلام ، والعصرين الأموي والعباسي ، فضلاً عن وجود الكثير من التناص(Intertexuality) مع آيات قرآنية متنوعة وظفها أدونيس الشاعر في شعره توظيفات يمكن استثمارها في الدراسة الحالية ، حتى ذهب بعض دارسي أدونيس إلى التسليم بضرورة المعرفة الأساسية الشمولية بالأديان السماوية (وبصورة خاصة : النص القرآني) بوصفه من المفاتيح الأساسية والشروط المهمة للدخول إلى النص الأدونيسي[٢١] من جهة ، ثم إلى مجمل الرؤية الفكرية التي لا يزال أدونيس يطرحها حتى الآن. وحسبك أن تتأمل عنوان ديوانه الأخير (الكتاب : أمس المكان الآن)[٢٢] لترى التناص الواضح وما يمكن أن تشير إليه الكلمة (الكتاب) من علاقة بتاريخ المفردة على مستوى الاستقبال أو الدلالة على مخزون الذاكرة المعرفية وموقفها الإيجابي من اطلاق كلمة (الكتاب) على القرآن الكريم في عشرات الآيات [٢٣] ، وكذلك على مستوى الانتاج والإبداع حيث تبدو رغبة أدونيس هنا في أن ينتج هو شيئا مماثلا في الأفق الإبداعي ،أي ينتج لغة فائقة ، أضف إلى ذلك ما أفاده أدونيس الشاعر من أسلوب الالتفات واستثمره في بناء ديوانه كله.

إذن سأعتمد على الكثير من الجدل والأفكار الأدونيسية المنشورة هنا وهناك حول علاقته بالقرآن، بالركون إلى عدة مثيرات بحثية أهمها قراءة أدونيس للقرآن ، وكذلك يمكن الاستناد إلى محاولات أدونيس المتعددة للإفادة

من النص القرآن / لغة القرآن بوصفها مثالاً في التعبير ، وشكلاً من أشكال الفائقية اللغوية والإعجاز ببعده اللغوي. لقد صرح أدونيس حين واجه النص المقدس / القرآن بأنه (تكلم على الكتابة القرآنية بوصفها نصاً لغوياً ، خارج كل بعد ديني ، نظراً وممارسة : نصاً نقرؤه كما نقرأ نصاً أدبياً)[٢٤] ، أي أن أدونيس انشغل بكشف تراكمات الجمال في لغة القرآن ،وما تقدمه تلك اللغة من طاقة إدهاشية في الحيز الشكلي الخارجي ، **وهذا يضعنا أمام تساؤلات في غاية الأهمية وهي ، كيف يمكن محاورة الوجود الجمالي للغة (قرآناً أو غير قرآن) دون مقاربة حقيقية للمعنى وطروحات الفكر؟!بل كيف لنا أن نعترف بوجود آفاق للكتابة بمعزل عن العلاقة الدلالية والرابطة المنطقية بين والمعنى والكلمات ؟! ثم ما المنهج غير المعلن – إذا استثنينا الجمالي – لدى أدونيس في تأملاته للغة القرآن؟! وأخيراً أين يقف أدونيس من تراث العرب القدماء في دراسات فهم البيان القرآني وأوجه الإعجاز فيه؟!ولا يخفى أنه مطلع على تفصيلات هذا التراث وتشابكاته المعرفية جملة وتفصيلا.**

هذه التساؤلات وغيرها هي صلب قضية (أدونيس والقرآن) ولعلها نمط مغاير من الأبحاث الذي لا يذهب فيه الباحث إلى رصد قيم معينة باتجاه أدونيس ، بقدر ما يرمي إلى تكريس مفاهيم مهمة لمحاورة أحد أبرز مؤسسي الحداثة الشعرية العربية ونظرياتها في قضايا لم يمسها النقد مساً مباشراً بعد.

إذا كان أدونيس يحاور اللغة ومستوياتها ليثبت أن لغة القرآن هي نمط من التركيب أو التعبير الفائق الجودة فهو لن يبتعد كثيراً عن جوهريات وتماسات أساسية في الدرس الإعجازي القديم ، وأعني ما ذهب إليه قدامة بن جعفر (ت حوالي ٣٣٧هـ) من إشارات إلى ما يسمى بـ (نهاية الجودة) وإن كان قد عجز عن مناقشة هذه الفكرة على نحو إجرائي[٢٥] ، أو ما سماه الرماني (ت٣٨٦هـ) بـ (المعجز / أو نهاية الحُسن)[٢٦].

ولا يرمي الباحث هنا إلى الكشف عن مرجعيات أدونيس في شهادته حول النص القرآني ، بقدر ما يرمي الى مقاربة آلية الجدل بين (الديني والأدبي) في الفكر الأدونيسي من جهة، وتأسيسات الرؤى الفنية التي يرسيها أدونيس في حديثه عن القرآن بوصفه نصاً / كتاباً ، اعتماداً على إشراقات الاستطيقا وتمظهراتها في ثقافة أدونيس باعتبارها هوسا وهاجسا يتملك مخيله الشاعر المبدع ، الذي يهمه دائما تحقيق الشكل الجمالي للوجود ، ومن ثم محاولة كشف إيمان أدونيس بان (النص البياني كإمكان ينفتح على أكثر من تأويل ، كميل إلى إنتاج التعدد والاختلاف)[٢٧].

وهذا ما يستثمره أدونيس لدعم رؤاه وأفكاره حول الدعوى إلى جعل اللغة ثورية وتفجيرية وخلاقة .. إلخ ، وهي أفكار لم يتخل عنها أدونيس منذ بداياته الأولى ، الأمر الذي يجعل من(النص القرآني / الكتابة) مرجعية لغوية أساسية في تدعيم مقولاته وقناعاته الأدبية حول (آفاق الكتابة) ، ومن هنا نجده يستغل البحث الفسيولوجي ، والسيميائي لإيضاح مواقفه تلك ، يقول أدونيس :"السورة لغة هي المنزلة أو الرفعة ... السورة مفتوحة كجزء محدود من فضاء غير محدود .. إنها كنجمة سابحة في سماء هي (الكتاب). كما أننا نستطيع أن نرى النجمة من جميع جهاتها المرئية كذلك نستطيع أن نقرأ السورة من حيث شئنا ، فهي لألأةٌ وتوهج أكثر مما هي معمار أحكمت هندسته من خارج"[٢٨].

بمعنى أن أدونيس يلتف حول طبيعة اللغة في النص القرآني ويمنحها صفة الالتفاف والحركة ، للوصول بها إلى صفة أخرى هي التوالد المستمر ، وعلى الرغم من أن ذلك قد يوحي برغبة ما في تأسيس رؤية خاصة للمعنى ، إلا أننا نقف أمام ما يمكن تسميته بـ(المعنى / ونفي المعنى) في آن، إذ كيف يكون المعنى بهذا الشكل التوالدي المستمر ، ويمكن لنا أن نحدد وجهة ما لمعنى ما ؟! ومن هو بالتالي الذي يمنح النص هويته المعنوية ؟ أهو المتلقي أم النص نفسه ؟! و من طرف آخر يحاول أدونيس إحداث تماسات فكرية مع المشاريع التأويلية الأصولية للنص (للدلالة) القرآنية ، ولكنه يحذر الانسجام معها كونها مشاريع قرائية لم تجرد الظاهرة القرآنية من حقيقتها المعنوية / الدلالية ، لذلك راح يركن إلى معرفة عميقة بالهرمنيوطيقا ومنهجيتها ، ولا عجب فقد نشأت الأخيرة في إطار النقاشات التي أثيرت حول (الكتاب المقدس)[٢٩] وهو نص ديني أولاً وأخيراً.

وفي واقع الأمر فإن النص القرآني منح أدونيس أيضاً انفتاحات تأويلية ربما فاقت ما ذهب إليه رولان بارت من إمكانيات تأسست عنده في (الدرجة الصفر للكتابة) ، فحتى الوقف (الصمت) في النص القرآني عدّه أدونيس أفقاً من آفاق الكتابة (ويمكن أن نشبه السورة بأنها لوحة أو بساط باذخ من الكلمات ، منتظمة في خطوط وأشكال وألوان ، بتنوع وتعدد متشابك ، البياض بين آياتها جزء من هذا البساط ... الصمت في قراءتها هو أيضاً جزء منها ، لأنه يدخل بين الآية والآية بوصفه وقفاً كذلك.

كأن السور بستان هو الكتاب ، وكل منها باب له ، بستان ندخل إليه من أي مكان شئنا ، ومن أية جهة. بستان بلا تخوم ، ذلك أنه هو تخوم الأشياء كلها)[٣٠].

وكلام أدونيس هنا يتشي بقدر كبير من المراوغة والتحايل البلاغي ، لغته تقدم طقساً احتفالياً بجمال الصياغة / الأسلوب ويصفه بكلمات أستطيع القول بأنها تواري خلفها وجهاً قاصراً في الحديث عن خصائص النص القرآني ، وهنا يظهر أدونيس ضد أدونيس ، بمعنى أننا أمام كلمات ، مثل: (لوحة / بساط / باذخ / اتكال / ألوان).

وهي واجهة التناقض مع كلمات (الصمت / البياض / التخوم) عند أدونيس. القرآن بوصفه نصاً رؤية محدودة ، وهو مساحة مؤطرة عنده ، وهو أفق وتخوم في الوقت نفسه!. ولكنها تخوم لا يريد لها أدونيس أن تكون أكثر من تخوم جمالية وأطر شكلية ، وهذه الفكرة تتجلى في تحليله (موسيقى السور) إذ (لا تكمن البنية العميقة ، في هذه الموسيقى في التآلف بين حروف اللفظ المفرد وتناغمها وحسب ، وإنما تكمن كذلك ، وعلى نحو أخص في طبيعة العلاقة القائمة بين الكلمة والكلمة – أو في النظم. وليس الفكر هو الذي يعيننا على اكتناه هذه الموسيقى ، وإنما تكمن طريقنا إليه في الحس والذوق. وهكذا تتمثل البنية الداخلية العميقة للنص القرآني في موسيقية لغته. فالنص القرآن نغم)[٣١]. نحن إذن أمام إنشاء تشكيل ثقافي مغاير ، إذ لم يكن القرآن نغماً في خطابنا الثقافي التراثي ، وليس هو كذلك في خطاب الفكر المعاصر ، حتى لدى نفر ممن لا يجدون للمجتمع العربي سلطة مؤثرة في توجهاتهم الفكرية من أمثال محمد اركون. إن المهمة الأولى للنص القرآني تكمن (في أن يقول المعنى الصحيح والحقيقي عن الوجود البشري)[٣٢].وكذلك الأمر في المرجعية الجاهلية عند التلقي الأول للنص القرآني ، كما عهدناه بمقولة الوليد بن المغيرة المشهورة .

وحتى من خلال النظر إليه كبنية لغوية بعيداً – كما يريد أدونيس نفسه – عن إحالاتها وتمركزها الديني فهي (بنية محركة للوجود .. بمعنى أن القرآن يحرك الوجود في كل جيل)[٣٣].

ولست أدلل على ذلك بأفكار حداثية فحسب ، إن التاريخ بوصفه نصاً واقعياً ينحت هذا الحراك الذي سببه القرآن بوصفه (لغةً / معنى / نغماً / وخطاباً) ، ومع ذلك يأتي أدونيس لينفي ويثبت ، حتى مقولات الجرجاني الذي يعده أدونيس (أكثر النقاد العرب عمقاً وفهماً)(٣٤) ، والذي يرى أدونيس تركيزه وتأكيده على أن (المزية في نظم الكلام ليست حيث نسمع بالأذن ، بل حيث ننظر بالقلب ، ونستعين بالفكر)(٣٥). ومع ذلك الوضوح الشديد يلوي أدونيس عنق النص ويذهب إلى أن (قيمة الصنيع الأدبي ليست في معناه بحد ذاته ، بل في لفظه .. وباختصار إن خصوصية الصنيع الأدبي هي في شكله)(٣٦).

وهنا صار مناسباً طرح الأفق التفكيكي الذي يحيط بالقراءة الأدونيسية للقرآن / الكتاب ، وهو أفق تتجلى فيه صورة جاك ديريدا ومقولات ما بعد الحداثة بالتحديد ، "لقد شجع ديريدا فكرة النص المبهم .. يريد أن نحطم كل معيار ، وأن نخالف كل فكر سابق ، وأن نتبرأ من كل تصنيف ، وأن نصنع شيئاً لا بنية له. يريد ديريدا إذن إقامة عناصر شديدة الاختلاف والتنافر ، ويريد أن لا نعبأ بفكرة النص المتماسك ، نحن لا نقصد إلى معنى وإنما نقصد إلى تأثير أو هزة عنيفة ... ديريدا مثل بارت يريد أن يحقق نشوة أو هزة أو تأثيراً لا معنى محدداً"(٣٧).

وإذا تمت قراءة الفكر الأدونيسي وفق هذا المنظور ، فإننا سوف نلمس مدى أدلجة هذه الرؤية ، وعمق محاولتها لتأسيس كلمة حق .. ولكن أريد بها باطل ، وإلا فما معنى الإشارة بمطلقية النص القرآني ، وتمجيد لغة القرآن وإشراقها وتجلياتها مع التركيز على إفراغ النص من مضمونه وتحولاته القيمية ، إن الأمر من الخطورة بمكان بحيث يصبح جلياً أمامنا مدى الخطأ التاريخي الذي يعتور الخطاب الأدونيسي هنا بالتحديد ، وربما كان المزيد من الكشف عن التوظيف الأدونيسي لأفكار ما بعد الحداثة مفيداً جداً في الكشف عن ملامح الورطة الأدونيسية ذاتها ، ومن ذلك ما ذهب إليه ديريدا نفسه في محاولته توضيح مفهوم التفكيك Deconstruction :(إننا اليوم في حقبة – وجود – في صدد التفكك ، "حقبة" قد تكون أبانت عن نفسها أو تخفّت في حقب أخرى. إن هذا الفكر (الحقبي) وخصوصاً الفكر القائل بتجمع أو بتحشد لمصير الوجود ووحدة مآله أو زواله لا يمكنه أبداً أن يوفر أية ضمانة أو موثوقية)(٣٨). ولست أريد كذلك العودة إلى هيدغر نفسه الذي تعد أفكاره البيئة الخصبة لإنتاج ديريدا الفلسفي.

غير أن أدونيس يتجاوز الطروحات النقدية والفكرية الغربية المعاصرة ، فهو يتجاوز أطروحات التفكيك ومقولات أصحابه في الإرجاء والمعنى المرجأ إلى محو المعنى بشكل وجودي وبصيغة كلية تضعنا أمام نمط من الارتجاج الثقافي الذي يُفقد العقل المفرد اتساقه الفكري والفلسفي فلا يعود بإمكانه استثمار الحقيقة بشكلها المطلق. ويؤكد بشكل محزن جوانب الفشل في مشروعه الفكري الذي أراد ترسيخه مع جماعة شعر عبر الدعوة الحادة إلى ضرورة قراءة الأصول نفسها لإيمانه بأنها (يمكن أن تفتح أفقاً جديداً للفكر العربي ، وبالتالي للحياة العربية)(٣٩).

ولكن قراءته تلك لم تصل به إلى ما يزيد عن جعل عد النص القرآني (نعماً)!! وخسارة عميقة للآفاق الفكرية التي كنا منتظرين أن تفتحها قراءة أدونيس لتلك الأصول!!!

غير أن تيه المرجعيات الفكرية لدى أدونيس ومراوحته بين العقل والباطن ، وخلطه بين هذا وذاك هو ما يسبب هذا التناقض وهذا الخسران ففي كتابه (الصوفية والسوريالية) يرى أدونيس (أن الحقيقة لا تجيء من خارج – من الكتاب ، أو الشرع ، أو القانون ، أو الأفكار والتعاليم)(٤٠). كما أن استناد أدونيس إلى ثقافة دنيوية وفلسفات إلحادية تقوده إلى مثل ذلك يقول (فإذا لم يكن الوجود إلا جنة أو جحيماً فإنه لن يكون إلا رهاناً ، وسيكون هذا الرهان بليداً ومضحكاً ، ولا يليق بالإنسان)(٤١) ، فضلاً عن أن قراءته المؤدلجة لدور العقل في الحضارة الإسلامية ، وفهمه غير الصحيح لإلغاء الدين للعقل ، وهو ما اشتغل عليه دحضه الفارابي طويلاً وبلوره في ((فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال))(٤٢) هذه المقدمات هي التي أوصلته إلى نتائج من مثل أن الدين أو كلام الله (أغلق العقل وحدد قدرات الإنسان وطاقاته)(٤٣).

وثمة مقولات أخرى كثيرة ، وأفكار مستمرة لأدونيس يمكن رصدها في هذا الاتجاه ، اتجاه النزعة العدائية للدين ، وتحميله وزر النكوص الحضاري والفكري العام للمجتمعات العربية ، مع أن في هذا مغالطة كبيرة لمنطق تاريخ الحضارة والفكر العربيين في عصور لا يجهلها أدونيس وأشباهه ، بل فيه إلغاء وإقصاء تام لحضارة تعايشت مع الدين وتعايش الدين معها.

وأكتفي هنا بالاقتباس التالي يقول : ((يبدو لي أن مساءلة الذات وتفكيكها أمران هما ، بالنسبة إليّ ، المهمة الأولى للفكر العربي ، إذا أراد الخروج إلى أفق الفكر والإنسان والحرية، ويبدو لي أن الأساس الأول لتحقيق ذلك ، هو الخروج من البنية الدينية ، ولا يبدأ هذا الخروج إلا بالفصل فصلاً كاملاً بين الدين والسياسة ، بين الدين والمؤسسة ، بحيث ينحصر الدين في كونه تجربة شخصية محضة ، لا تلزم إلا صاحبها))(٤٤).

إذن هذه الأطر الفكرية وهذه المرجعيات ، من الضروري أن نكشفها بوصفها المحرك الأول لبناء منهجية أدونيسية خاصة تجاه القرآن ، تلك المنهجية التي لم تر في القرآن إلا (نغماً!) وحسب.

حين جاءت كتابة أدونيس عن النص القرآني معلنة وصريحة ، وفي مرحلة ناضجة جداً ومتأخرة من مراحل اشتغاله الفكري ، صار من الضروري أن نحاور هذا المنجز الفكري بنوع من الجرأة المعرفية والتساؤل المؤدلج ، فأدونيس نفسه يكشف عن أدلجة كفرية خطيرة مغلفة بثياب الإصلاح الفكري والنوايا الحسنة تجاه الأمة وتراثها ومستقبلها.

القرآن والتصوف

إن قسماً كبيراً من تنظيرات أدونيس حول طبيعة الكتابة القرآنية ، ومحاولاته لرصد طبيعة النص القرآني (كحبس كتابي) تهدف بكل قوة إلى الاعتراف بمرجعية قرائية واحدة يمكن لها أن تتعامل مع هذا النص ، وتنفي إمكانيات القراءة من أطراف معرفية أو ثقافية أخرى. لذلك نجد أدونيس يمسك بهذه المرجعية محاولاً استثمار مقولاتها في التوحد والحلول والانصهار لرسم بعد أيقوني للغة القرآن من خلال الحديث عن مستويين من الدلالة

باذلاً كل جهده لتحويل مسار هذه اللغة وتلك الدلالة وقطع كل علاقة لها بواقع الناس وبشرية المجتمع الإنساني ، فهو بذلك يؤسس لنص ديني كهنوتي. يقول أدونيس ((يمكن القول إن الكتاب بوصفه مطلقاً ، لا يبدأ ولا ينتهي ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فهو في هذا الأفق ، الله نفسه : كلي الظهور ، وكلّي البطون في آ، ، يُفهم ولا يستنفذ في آن ، وكل كتابة خارجه لا تقول إلا استحالة القول. هكذا يكون الكتاب لغة تعيد باستمرار خلق اللغة. لا تعود مجرد علامات وأدوات. اللغة هنا ، لحظة هي أبجدية ، إنما هي في الوقت نفسه كون وألوهة ، أسرار وغيوب. إنها الشيء ما وراءه ، إنها اللامتناهي : الأصل والمعاد ... ولا تكون الكتابة في هذا الأفق ، كتابة الحياة إلا لأنها كتابة الموت. كتابة الكائن من أجل الموت ، كتابة التمحور حول الجذر ، لا حول الثمرة ، عبوراً على جسر الفاجعة – الحياة ، جسر الزوال ... هل نقول ، في هذا الأفق ، إن الكتاب هو ذلك الكائن المتخيل في ذلك الاتحاد الإلهي – الإنساني ، باللغة وفيها؟ هل الكاتب هو اللاكاتب؟ هل غيابه هو نفسه حضوره؟ وهل الكتابة المثلى هي التي تتم دون كاتب؟))(٤٥).

<u>الخلاصة</u> :

هذه هي الأسئلة الجوهرية التي تشكل مشروع أدونيس الخاص لفهم القرآن ، وتكشف مرجعياته الباطنية ، بحيث يمكن تحديد أهم نتائج الدراسة فيما يأتي :

- أدونيس يصادر الحقيقة الحقة للنص القرآني ..بحيث يقصيه عن بعده الديني الإيماني
- وأحسب أن أدونيس ولعبته في التماهي مع لغة الوصف يستطيع أن يخدع نفراً من المثقفين الذين ربما بهرتهم هذه الصفات المخاتلة التي يطلقها على أفق الكتابة القرآنية .
- يعمل أدونيس على نفي الحضور النبوي من ساحة التلقي القرآني ، من خلال إغفال دور النبوة في كونها التلقي الأول للنص القرآني ، وكون النبي أيضاً حامل الرسالة المبلّغ ، وهذا بدا جلياً من خلال إقصاء الواقع الشفوي الذي تعامل مع النص القرآني في مرحلة التأسيس.
- تجسد هذه الرؤية أحد أوجه المتاهة العقلية التي يحياها أدونيس لاسيما في إطار المرجعية الصوفية تحديداً ، وأضيف مزيداً من التوضيح من خلال التأكيد على أن هذه المرجعية هي في الأساس "تعبير عن مأزق العقل الذي يندفع إلى أفق الوهم" كما يرى علي حرب(٤٦).

، ومدار الصوفية ، كما أفهمها – أي أدونيس – هو(اللامعقول ، اللامرئي ، اللامعروف)(٤٧).

- وبالإضافة إلى هذه المرجعيات الباطنية التي يتأسس عليها نظر أدونيس للقرآن / الكتاب، فثمة مرجعيات إلحادية لا يمكن أن يسوغ معها فهم نص ديني إيماني بالدرجة الأولى ، فأدونيس هو الذي يعلن أنه "إذا لم يكن الوجود إلا جنة أو جحيماً فإنه لن يكون إلا رهاناً ، وسيكون هذا الرهان بليداً ومضحكاً ، ولا يليق بالإنسان"(٤٨).

- أضيف إلى ذلك أن مرجعياته الثقافية التي تتلخص في تقديس الإبدع ورفض الإتباع هي التي يتأسس عليها فهمه الكلي للنص ، ومن هنا رفض أدونيس المطلق للفهم الظاهري للقرآن ، وذهابه بكل قوة إلى التأويل الباطني للنص .
- وأخيرا فإن القيمة النهائية للنص القرآني لدى أدونيس تتمثل بقيمته اللغوية بصفته نصا يعكس مرحلة متقدمة من الإنجاز والإبداع اللغوي في ثقافتنا العربية .

الهوامش

١) علي الشرع ، بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، دمشق ، اتحاد الكتاب العربي ، ١٩٨٧ ، ص٩.

٢) جهاد كاظم ، أدونيس منتحلاً ، الدار البيضاء ، دار إفريقيا الشرق ، ١٩٩١ ، ص١٦٣.

٣) عبدالرحيم مراشدة ، أدونيس والتراث النقدي ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، إربد – الأردن ، ط١ ، ١٩٩٥م.

٤) أدونيس (علي أحمد سعيد) ها أنت أيها الوقت ، ص٣٠.

٥) عبدالرحيم مراشدة ، أدونيس والتراث النقدي ، ص١٢.

٦) أدونيس (علي أحمد سعيد) ها أنت أيها الوقت ، ص٣٣.

٧) أنطون سعادة : أديب ومفكر لبناني واسع الثقافة ، يجيد عدة لغات ، عني بالقضايا الاجتماعية ، ونظرات نشوء الأمم ، (انظر : يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٢م ، ج٣).

٨)أدونيس ، ها أنت أيها الوقت ، ص٧٠.

٩)محمد جمال باروت (المقدمات الأيديولوجية لمشروع الحداثة الشعرية) ، ص٨٩ ، المعرفة، ع٢٧٤ ، ١٩٨٥.

* وهي دعوة مفصلة في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) منشورات تواصل ، القاهرة ،١٩٩٩.

١٠)حوار مع أدونيس ، مجلة عيون ،منشورات الجمل ، ع٦، س٣، ١٩٩٨، ص١٣١

١١)أدونيس ، الثابت والمتحول ، ج٣/صدمة الحداثة ، ص٥-١٠.

١٢)سامي مهدي ،أفق الحداثة وحداثة النمط ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٨ص١٤٠.

١٣)انظر كتابه : الصوفية والسريالية ، دار الساقي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م.

١٤)انظر تفصيلها في (السريالية والشعر العربي الحديث) ، محمد إسماعيل دندتي ، مجلة المعرفة السورية ، ع٤٠٩ ، أكتوبر ١٩٩٧ ، ص ص ٨٣-٨٨.

١٥)أدونيس ، (مقدمة) الأعمال الشعرية الكاملة ، ج١ ، ص٧.

١٦)مجلة شعر ، يوسف الخال ، عدد ١٥ ، صيف ١٩٦٠ ، ص١٣٩.

١٧)شكري عياد ، الغموض في الشعر الحديث ، مجلة الفكر المعاصر ،ع١٩٦٧،٢٦،ص٤٤

١٨) أدونيس ، الأعمال الشعرية الكاملة ، قصيدة المدينة ،مجلد ٢، ص ٢٤٠

١٩) سامي مهدي ، أفق الحداثة وحداثة النمط ، ص ١٤٠

٢٠)أدونيس والتراث النقدي ، عبدالرحيم مراشدة ، دار الكندي ، إربد ، ط١ ، ١٩٩٠م ، ص١٠.

٢١)تحرير المعنى (دراسة نقدية في ديوان أدونيس : الكتاب) ، أميمة درويش ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص٤٣.

٢٢)صدى عام ١٩٩٥م.

٢٣)في السور والآيات التالية :

٢٤)النص القرآني وآفاق الكتابة ، أدونيس ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص١٩.

٢٥)تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٥م، ص٢٢٧.

٢٦)رسالتان في إعجاز القرآن ، ضمن (النّكت في إعجاز القرآن) ، أبو الحسن الرمّاني ، تح : خلف الله أحمد ، وزغلول سلاّم ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٦٩.

٢٧)التأويل والحقيقة ، علي حرب ، دار التنوير ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م ، ص ص ٣٥-٣٦.

٢٨)النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص ص ٢٢-٢٣.

٢٩)Hermeneutics, E. palmer, North Western University Press, ١٩٦٩, p. ٣٤.

٣٠)النص القرآني وآفاق الكابة ، ص٢٤.

٣١)نفسه ، ص٢٥.

٣٢)الرؤية الأركونية للخطاب القرآني ، د. محمد الشياب ، مجلة أفكار ، ع١٨٢ ، ٢٠٠٣م ، ص١٧.

٣٣)نفسه ، ص١٩.

٣٤)النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص٢٦.

٣٥)نفسه ، ص٢٧.

٣٦)نفسه ، ص ص ٢٧-٢٨.

٣٧)بعد الحداثة (صوت وصدى) ، د. مصطفى ناصف ، النادي الأدبي ، جدة ، ط١ ، ٢٠٠٣ ، ص ص ٢٧٦-٢٧٧.

٣٨)الكتابة والاختلاف ، جاك ديريدا ، تر : كاظم جهاد ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٨٨م ، ص٦٢.

٣٩)ها أنت أيها الوقت (سيرة شعرية ثقافية) ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص٦٠.

٤٠)الصوفية والسريالية ، أدونيس ، دار الساقي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ص١٦.

٤١)نفسه ، ص١٧.

٤٢)صدر عن المكتبة المحمودية بالقاهرة ، ١٩٦٨م.

٤٣)النظام والكلام ، أدونيس ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص٤٥.

٤٤)نفسه ، ص٥٦.

٤٥)النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص ص ٣٢-٣٣.

٤٦)التأويل والحقيقة ، ص٢٨٨.

٤٧)الصوفية والسوريالية ، ص١١.

٤٨)نفسه ، ص١٧.

==========

قائمة المصادر والمراجع :

- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٥
- أدونيس ، حوار مع أدونيس ، مجلة عيون ،منشورات الجمل ، ع٦، س٣، ١٩٩٨
- أدونيس ، الصوفية والسريالية ، دار الساقي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م
- أدونيس ، النص القرآني وآفاق الكتابة ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م
- أدونيس ، النظام والكلام ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م
- أدونيس ، ها أنت أيها الوقت (سيرة شعرية ثقافية) ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م
- أميمة درويش ، تحرير المعنى (دراسة نقدية في ديوان أدونيس : الكتاب) ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م
- جاك ديريدا ، الكتابة والاختلاف ، تر : كاظم جهاد ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٨٨م
- جهاد كاظم ، أدونيس منتحلاً ، الدار البيضاء ، دار إفريقيا الشرق ، ١٩٩١
- أبو الحسن الرمّاني ، رسالتان في إعجاز القرآن ، ضمن (النّكت في إعجاز القرآن) ، ، تح : خلف الله أحمد ، وزغلول سلاّم ، دار المعارف ، القاهرة
- سامي مهدي ،أفق الحداثة وحداثة النمط ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٨
- شكري عياد ، الغموض في الشعر الحديث ، مجلة الفكر المعاصر ،ع٢٦،١٩٦٧
- عبدالرحيم مراشدة ، أدونيس والتراث النقدي ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، إربد – الأردن ، ط١ ، ١٩٩٥م.
- علي حرب ، التأويل والحقيقة ، دار التنوير ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م
- علي الشرع ، بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، دمشق ، اتحاد الكتاب العربي ، ١٩٨٧
- محمد إسماعيل دندتي ، السريالية والشعر العربي الحديث ، مجلة المعرفة السورية ، ع٤٠٩ ، أكتوبر ١٩٩٧
- محمد جمال باروت (المقدمات الأيديولوجية لمشروع الحداثة الشعرية) ، ص٨٩ ، المعرفة، ع٢٧٤ ، ١٩٨٥.
- محمد الشياب ، الرؤية الأركونية للخطاب القرآني ، مجلة أفكار ، ع١٨٢ ، ٢٠٠٣م
- مصطفى ناصف ، بعد الحداثة (صوت وصدى) ، النادي الأدبي ، جدة ، ط١ ، ٢٠٠٣
- يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٢م
- Hermeneutics, E. palmer, North Western University Press, ١٩٦٩